المدونة | المجلد08 / العدد 04 ديسمبر 2021. ص 4025- 4040

# الحالة البيئة بين المركزية الالاهية والمركزية الإنسانية

# The environmental situation between divine and human centrality

ط.د مقروד عادل *

أ.م شراد فوزية ♣



| تاريخ الإرسال: 2021/01/25 | تاريخ القبول:2021/05/22 | تاريخ النشر:2021/12/20 |
|---|---|---|



**الملخص:**

نحاول من خلال هذه الورقة أن نبين كيف عاشت البيئية أزهى مراحلها وأحسن أيامها في عصور الدين وسيطرة التشريع الفوقي الذي جعل مظاهر الطبيعة متمازجة مع الميثولوجيا والمعتقد، مما رفع مقام الوسط البيئي، فقد كانت الحضارات الشرقية القديمة على اختلافها الزمكاني متوحدة في النظرة البيئية الحكيمة، فضمنت فيها مقاما عاليا، وتبعتها في هذا ديانات العصر الهلنستي الذي خرج على التوجه الغربي المتداول وجعل من البيئة سلطة غيبية، كما قام العصر الوسيط على نفس النموذج، وعاشت البيئة في آمان بفعل الديانات السماوية الموجهة للفعل البشري، لكن في مقابل هذا عاشت أزمات حادة في العصر الحديث الذي تميز بتقديس الحداثة والأنوار.

**الكلمات المفتاحية:**أخلاقيات، البيئة، الدين، مركزية الله، الحداثة، مركزية الإنسان..

**Abstract:**

*As it appeared through this paper that the environment lived its most prominent stages and its best days in the ages of religion and the domination of the supreme legislation that made the aspects of nature intermittent with mythology and belief, thus raising the status of the environmental milieu. The ancient eastern civilizations, regardless of their spacetime, were united in the wise environmental*

المؤلف المرسل: مقرود عادل adil.megroud@univ-batna.dz

*جامعة الحاج لخضر باتنة1 adil.megroud@univ-batna.dz

♣جامعة الحاج لخضر باتنة1 feuzia.roza@ gmail.com

*view, so they ensured a higher place, and got followed in this by the religions of the Hellenistic era, which went out on the rolling western trend and made the environment a metaphysical authority, and the Middle Age was based on the same model, and the environment lived in safety due to the heavenly religions directed to human action, but in return for this it lived severe crises in the modern era that was distinguished by the reverence of modernity and enlightenment.*

***Key words**: Ethics, Environment, Religion, God Centrality, Modernity, Anthropocentrism.*

*** *** ***

**. مقدمة:**

البيئة هي الوسط الحيوي الذي يحتوي اللاإنسان ويتعلم فيه التأقلم مع مُعيقات العيش، كما أنها منبت مُعظم الحاجيات البيولوجية الضرورية لمواصلة تحديات الحياة، لهذا فهي بمثابة المسرح الذي يدور فيه عرض أحداث حياته، والينبوع الذي تتدفق منه مقومات عيشه، لكن بقدر ما كانت البيئة ذات أهمية بالغة بقدر ما كانت تتوجه إلى أزمة دُقت نواقيسها في مطلع العصر الحديث، مما عجّل بظهور مستجدات بيئية حدثت بفعل دافعية الأفكار النظرية، التي تتحول مع الزمن إلى ممارسات ميدانية، فقد كان الإنسان يتأثر بالفكرة ليترجمها إلى واقع.

لكن هذا الإنسان قد خضع في أزمنة غابرة إلى الغيب والمجهول، فكان يقدس ويخضع لتعاليم لم ير مصدرها، بل يُؤمن بها على سبيل المطلق الذي لا يعرف التغيير ولا التطور، فكونت هذه التعاليم دستوراً يضمن احترام البيئة وعقلنة استهلاك خيراتها، فضمنت السلامة البيئية لعصور وأزمنة ليست بالقليلة عبر التاريخ البشري، لكن حدث وأن ظهرت مصادر بشرية لتشريع فحلت محل الأولى وألزمت الإنسان بالخضوع لنفسه ومنطقه الاجتهادي، هذا ما جعل البيئة تنتقل من كونها ميدان جدير بالتقديس والاحترام والصون إلى وسيلة لتلبية الحاجيات وإرضاء الجشع والغرور وإظهار التفوق، فانطلقت معاناتها التي مهدت لمعاناة البشرية جمعاء، وأصبحت تدق ناقوس الخطر وتنذر بكونها أحد سبل فناء الجنس البشري.

في هذا الإطار تدور إشكالية الورقة، التي تدفعنا إلى طرح سؤالنا كيف حققت المعتقدات الدينية الإيماني السلامة البيئية، على عكس المعتقدات التنويرية النابعة من حقل الحداثة؟

**2. تعاليم وطقوس الفكر الديني الغيبي.**

**1.2 تعاليم تعاليم وطقوس الديانات الشرقية القديمة البيئية:**

**من المعروف أن عالم الشرق هو عالم الوحي والروح فيه ساد الدين بطابعه الغيبي المقدس وحكمت تعاليم السماء أهل الأرض، لكن بقدر ما كان الدين حاضراً في كل مناحي الحياة بقدر ما كان هناك تعدداً في الديانات والملل، فكانت هذه الحضارات تعيش على الاختلاف مما كان يُولد الصراع والخلاف.**

**وقد كانت بلاد الهند أحد أعظم الحضارات الشرقية التي عُرفت بتعدد دياناتها وخصوبة تعاليمها تحمل تعاليم وطقوس رحيمة بالبيئة، فالديانة الهندوسية مثلاً تعتقد أن بعض الجبال مثوى ومكان للآلهة فيها تحكم وترتاح، وشجرة التين شجرة مباركة في ظلها تُبنى أماكن العبادة، ويُوقد فيها المؤمنون المصابيح** (فيني، 2006، صفحة 123).

**مثل هذا المعتقد يزيد من قيمة الطبيعة ويزيد مقدارها القداسي، لأن الآلهة وهي من تُمثل أعلى هرم المقدسات أصبحت مرتبطة بالغابة بطريقة تطابقية حلولية، أين يصبح كل مظهر من مظاهرها رمزاً مقدساً، لهذا فالتقرب منها يكون باحترام مكوناتها الطبيعية، أما التعدي عليها ففيه مساس بأحد مقوماتها أيضاً مما يجعل الخوف دافع نفسي وأخلاقي لحماية الطبيعة.**

**أما الثروة الحيوانية فقد كانت ذات قيمة وقداسة أيضاً عند الهندوس لما أخذت بعض الحيوانات كرموزاً للآلهة فكانت الفأرة مثلا تُكرم في المعابد، من طرف عشائر كثيرة، ويُقدم لها المؤمنون قطع الحلوى. كما أن الإله يتجسد في عديد الأشكال الحيوانية ك: السمك، والسلحفاة، والخنزير، وفي مخلوق نصف إنسان ونصف أسد،**

فهذه المخلوقات ليست آلهة؛ بل هي مظاهر طبيعية يتجلى ويتشكل فيها، حتى يتسنى له العيش في طبيعية ملموسة، كما أن بعض البرهمان يؤكدون على ضرورة التغذية النباتية والحيتان بدل الحيوان (فيني، 2006، صفحة 124).

هذه المعتقدات تُعبر على أصالة كبيرة لدى المعتقد الهندوسي، إذ كان سباقاً في طرح العديد من النظريات الأصيلة والرائجة في عالم البيئة مثل: نظرية الحلول الذي سادت في الفكر الإشراقي والصوفي عبر التاريخ الفكري، كما أنها أصلت للتغذية النباتية التي أصبحت شعار المدارس الإيكولوجية المعاصرة.

على الشاكلة نفسها في الديانة اليانية التي أسسها مهافيرا نجد هذا الاحترام المبالغ فيه للحيوان حتى أنه بلغ مبلغ التقديس أيضاً، إذ كان الرجل يدعو أتباعه بمهادنة الطبيعة ولو في أبسط الحركات ك: الانتباه للخطوات حتى لا يرفسوا المخلوقات الصغيرة، أو الانتباه للقهقهة التي تعطي فرصة لتسلل الحشرات إلى الفم فتهلك (شلبي، 1984، صفحة 113)

كما آمنت البوذية بأن جمال الطبيعة المحيطة بالإنسان هي علامة من علامات رضا الآلهة (لفنسون، 2005، صفحة 59)، مثل وفرة الحيوان والنبات النافع، لذا فالحيوانات والنباتات يجب أن يُخدموا ويُحترموا حتى تدوم النعم، ويبقى والرضا، وتتعايش الآلهة والبشر والطبيعة في ود متبادل كل فيها يقوم بدوره ويُكمل عمل الآخر.

وغير بعيدا على هذه الرقعة توجد الحضارة الصينية التي زخرت بالتعاليم الدينية أيضا، وكانت الطاوية أحد الديانات الصينية التي تطرقت للبيئة أيضا من منظور جميل فجاء في كتاب الطاو: "دع كل شيء يكون ما هو عليه، سيكون السلام" (لاوتسه، 1995، صفحة 17)، وكأن هذه الدعوة هي نصيحة للإنسان بالتوقف على التدخل في الطبيعة كسلطان عليها فيحرك فيها ما يشاء ويُفسد فيها أي مظهر ضد مصلحته ورغبته التوسعية.

لتؤسس الطاوية لفكرة هي من تُحرك النضال البيئي المعاصر، وهي فكرة اللامركزية في العالم الطبيعي، أي كل كائن له الحق في الحياة والعيش السليم، الذي لا تعرض حياته أو نسله للانقراض، فهو وإن بدا ذو تأثير سلبي على الطبيعة، فإن غيابه ذو تأثير كارثي عليها.

كما أنها أسست لفكرة لا تقل تأثيراً على الأولى ووهي فكرة عظمة الماء فقد كانت الطاوية تأمر باحترام الماء كعنصر حيوي وهذا يظهر في قول لاوتزي فيه :" الكائنات البشرية تتكون من ماء: الجوهر المنوي للرجل، والتشئ للمرأة يتحدان ليفيض الماء ويسوغ شئ جديداً " (لاوتسه، 1995، صفحة 28).

هذه الفكرة التي أصبحت ذات قيمة كبيرة في الدرسات البيئية والجيواستراتجية والتي يطلق عليها اسم الأمن المائي وقد كانت الطاوية تعالجها بأسلوب قيمي إتيقي مهم ساهم في بقاء هذا العنصر الحيوي الضروري للحياة.

أما الحضارة المصرية القديمة التي أسست معظم مخلفاتها الحضارية انطلاقا من معتقدات دينية مازالت تعاليمها منقوشة فيها فإنها تناولت القيم كمجال قائم بذاته ويتجلى في مفهوم الماعات Maat الذي عاش تطور كبير في المجال الدلالي للكلمة فقد دل على: الحقيقة والعدالة والنظام، ثم دل على آلهة الحقيقة والعدالة والوفاق، ثم دلت على العدل والصدق والحق كقيم قائم بذاتها وليست قيم مرتبطة بالآلهة (معيرش، القيم في الفلسفة الشرقية إشكاليات وأعلام، 2017، الصفحات 52-53).

هذا التتبع الجنيولوجي للمنبت الاصطلاحي مهما كان معناه أو مفهومه فإن الطابع القيمي يفوح منه، لأن كل التعريفات على اختلافها تتفق على انتمائه لعالم القيم. التي لم تتجاهل عالم البيئة وجعلته من العوالم المهمة التي تحضا باهتمام كبير.

إذ نجد في الميثولوجيا الفرعونية ربط عالم النجاة والخلاص في الحياة الثانية بعدم المساس بالبيئة والإفساد فيها وهذا يظهر جلياً في تعويذة البراءة أو ما يسمى بإعلان المتوفي التي جاءت مفصلة في كتاب الموتى، على لسان المُعترف: "إنني أحترم جميع

الكائنات الحية، فلم أحرم الماشية من عشبها، ولم أصنع أفخاخ لعصافير الآلهة ولم أصطاد السمك من بحيرات الآلهة، ولم أبني سد أمام ماء جاري، ولم أطفأ نار متأججة، ولم أمنع الماء في موسمها" (طبوزادة، 2004، صفحة 137).

بالإضافة إلى هذا القدر العالي من الاهتمام نجد البيئة القداسة الغيبية تحف نهر النيل الذي شبه بالرجل أو الملك المبجل في المخيال الفرعوني (لود فيغ، 2017، صفحة 459). وهذا رفعة لقدره لأن الملك له قدره السياسي والاجتماعي المرموق، والرجولية لها قيمتها المعيارية في الأواسط العامة.

كما أنه كان يحتفل بفيضانه ويزوج بجميلة من أهل مصر وتنشد فيه التراتيل، فجاء في مقطع ترجم للغة العربية مفاده: " دمت عظيم يا بحر الحياة، تهب الماء لمن تشاء، تجعل الزرع يحيا والحياة تدب، أنت الحياة عينها، والجمال الأخاذ " (الفندي، 1993، صفحة 53).هذا المقام المرموق في المعتقد المصري لنهر النيل جعله يبقى شريان الحياة في مصر، ويروي أجيال وشعوب متعاقبة تتفنن في تقديسه ورد الجميل إليه لهذا فالعلاقة الروحية أعظم من العلاقات البرغماتية التي جعلته في عصرنا المعاصر موطن التلوث والخراب والخلافات التي تقود للحرب.

2.2 تعاليم وطقوس ديانات العصور الوسطى:

عُرفت العصور الوسطى بعصور الديانات أو عصور الوحي، أو عصور العناية الالاهية، ففي هذه المرحلة شهد العالم نزول الرسالات السماوية الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – مما أسس لطابع إيماني رباني صنع قطيعة مع الماضي في العديد من المسائل ومهد لظهور مرحلة جديدة لم تعرف البشرية شروط إبستمية ومعرفية مماثلة لها من قبل، فأنشأ منعطفات خطيرة في الجانب القيمي والأخلاقي إذ عاش العالم على نصوص وكتب رآها مقدسة وذات مصدر مطلق، فحددت له مفهوم الخير والشر بقطعية وثبوت في حالات، وبتلميح وضبابية في حالات أخرى، مما ولد إجماع في مسائل وخلاف في مسائل مغايرة، فأخذت القيم حيزاً كبيراً من كل كتاب مقدس، وكانت الدعوة الأولى لكل نبي وأصبحت معيار الصلاح والقرابة من الله .

وقد نالت البيئة حقها من هذا الاهتمام الذي تجلى في تصور الديانة اليهودية، وهي أول الديانات السماوية نزولاً، وقد جاء بها النبي موسى بن عمران العائد نسبه إلى إسحاق ابن إبراهيم (معيرش، جدل الديني والسياسي في اليهودية والإسلام بين المقدس والمدنس، 2010، صفحة 18) وفي خضم هذا الاهتمام جاء في سفر التكوين قول الله :" لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا، وليتسلط على سمك البحر، وعلى طير السماء، والبهائم وجميع وحوش الأرض، وكل ما يدب على الأرض " (صفحة 18)

من هنا تتضح الرؤية الأولية لموقف هذه العقيدة من البيئة، فهي تتبنى فكرة المركزية البشرية التي تُؤمن بأن العالم وُجد من أجل الإنسان وهو السلطة العليا فيه، لكن اختلف التبرير عندها على تبريرات المذاهب الحداثية فقد عللت تقدم الإنسان بخلافهم من منطلق تشابهه مع الله أي من صفاته التي ترفعه وتقربه من الذات الالاهية، وتسمح له من تسيد باقي المخلوقات، بشرط أن يكون ملزماً بحماية موطنه وقائد حكيم وزعيماً مكترثاً بالوضع البيئي.

لتتطرق اليهودية لمشكلة بيئية أخرى لما عدت البيئة رمز الجمال وجوهره، فيضرب بها الله المثال في الجمال وبالذات في السفر الرابع من التوراة ومضمونه :"ما أحسن منزلك يا يعقوب، ومسكنك يا إسرائيل مثل الأودية الجارية، ومثل الكروم على النهر، ومثل العرعر الذي على الماء" ( 1428هـ – 2007م ، صفحة ص385) ، مظاهر الحسن هذه بيئة محضة يمكن لأي كان من المخلوقات أن يستمتع بها .

بناء عليه يمكن تصنيف هذا الموقف الجمالي ضمن الجدلية التاريخية التي طالت مشكلة الجمال وجوهره، أين يدخل ضمن الطرح القائل بأن الجمال طبيعي خالص أي مكتف بذاته، ومتعلق بعناصر الطبيعة العذراء فقط التي تمثل الجمال الكامل وأشهر من تبنى هذا الطرح كان أفلاطونPlaton (427ق م-347ق م)، ولكن ناقضهم وعارضهم طرحاً آخر اعتقد أن الجمال يجب أن يكون عاقلاً تتدخل فيه القوى الإنسانية فيصبح فن وأشهر زعماء هذه الأطروحة كان هيغلHegel(1770م-1831م).

كما أن التلمود تطرق بدوره إلى مواضيع بيئية جديدة نسبياً في ذلك الزمان، وفيها نوع من الوعي الإيكولوجي السابق لزمانه، وإن لم يكن يحمل هذا الاسم، إذ تطرق إلى موضوع النفايات والمخلفات الضارة وأسس إلى طرحها في الأماكن المخصصة لها حتى لا تؤذي الناس، كما تطرق إلى حماية المسطحات المائية من الردم أو التلوث فجاء فيه :"البئر الذي من شربك لا يجدربك أن تلقي فيه الحجارة" (التلمود، صفحة 322 ).

أما الديانة المسيحية فقد تطرقت للبيئة كموضوع قيم، من خلال نصح الإنسان بعدم السعي الدائم وراء التوسع والاستغلال، والاكتفاء بعطائات الرب فجاء في الإنجيل قول الله:« أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى المخازن، و أبوكم السماوي يقوتها، تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل» (فكري، صفحة 76)، هذا الأمر يحمل رسالة حكيمة تجعل الإنسان لا يفكر بجشع دائم ولا طلب للسيطرة على الطبيعة بأسلوب مبالغ فيه فتكون حياته مسخرة لإرضاء الطمع الذي يتنصل من الإيمان بدور الله المطلق.

كما أنها تطرقت لموضوع الإنسان وهذا يظهر في الموقف الأنطولوجي المسيحي من الخلق لما تبع الرأي السائد في أغلب المعتقدات السابقة من خلال سيدنا آدم الذي أعتبره النص الديني كأول بشري بعث للحياة فقد خلق من تراب الأرض ونفخ فيه من روح الله (صبري، صفحة 81)، فكانت قيمته وسط هذا الخلق المتنوع قيمة مرموقة، أي خلق في أحسن صورة ممكنة ورفع فوق العالم الحي والجامد، لكن لم يكلف بالحماية ولم يتقلد واجب المسؤولية، بقدر ما كلف بالانسجام مع العالم والعيش معه في تو افق ملئه التعايش المتبادل، فهو ليس سيداً بقدر ما هو جزءاً من العالم.

وفي الدين الإسلامي كانت البيئة ذات قيمة بالغة فقد سخر الله سبحانه وتعالى العالم للإنسان وهذا يتجلى في العديد من الآيات منها قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ*وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ

تهتدون﴾ (قرآن كريم : سورة النحل الآية 14) وفي قوله أيضا:﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (قرآن كريم : سورة الملك ، الآية 14) وفي آية أخرى معنى قريب يظهر في قوله عز وجل:﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (قرآن كريم : سورة الجاثية ، الآية 13)، هذا التسخير المذكور في الآيات الكريمة سالفة الذكر لا يعني أن الإنسان هو محور العالم وسلطانه، وأن عالمه هذا ملكه يعمل به ما يشاء، إنما المقصود منه أن المسؤولية تجاهه إنسانية وكونية وأن الموطن البيئي شرط الحياة البشرية لذا فهو المسؤول الأول العاقل قبل كل مخلوق غريزي.

لأنه توجد آيات أخرى في السياق ذاته لكنها أكثر أستفاضة في المعنى، يحمل فيها الله سبحانه وتعالى المسؤولية الكاملة في كل فساد في العالم فنجد الله يقول:﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (قرآن كريم : سورة الروم ، الآية 41)، في هذه الآية الكريمة موقف إيكولوجي واضح يحذر الله الإنسان فيه من انتشار الفساد البيئي لأنه سيذوق من فساه ويتحمل نتائج أعماله، واللافت أيضا أنه فصل في المواطن البيئية بين البحرية منها والبرية وهذا سبق إعجازي لحالة كوكب الأرض في العصر الحديث الذي يعش تلوث مائي وبري كبير.

ثم نجد آيات أخرى كثيرة في نفس السياق تأمر الإنسان بالصلاح وتحمله مسؤولية أفعاله، على حد تعبير أهل الفقه الجزاء من جنس الفعل وهذا في قوله عز وجل:﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ (قرآن كريم : سورة هود ، الآية 117).

هذا الوعيد الرباني تجاه الفساد منطلق من و اقع إنساني كله أنانية وتسابق نحو الفوز المادي، مما أدى إلى خلل في النظام البيئي واستنزاف لخيرات موطن كامل مسخر لحياة نموذجية تلبى فيها حاجيت الإنسان وغيره من المخلوقات.

هذا الكمال الطبيعي والبيئي صرح الله به في العديد من الآيات في قوله تعالى:﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما

تفعلون﴾ (قرآن كريم : سورة النمل ، آية 88)، هذا البرهان الطبيعي الذي دل به الله تعالى على كمال العالم البيئي يجسد أصالة في مقابل موقف بعض الإيكولوجيين المعاصرين الداعين لترك العالم البيئي وشئنه بخيره وشره ورفض كل الاجتهادات الإنسانية فيه مهما كانت أهدافها وغاياتها.

أما الحديث النبوي فقد كان زاخراً بالمواضيع البيئية هو الآخر، إذ تناولت السنة الشريفة ما يقارب الخمس مئة وستة وثلاثين حديثاً تناول موضوع الحيوان والزرع ومنزلة الطبيعة عند الله، وضرورة التراحم فيما بين المخلوقات، والغاية من الخلق، والسبيل للحفاظ على السلامة البيئة، والسلامة الإنسانية، وبهذا فيمكن أن يكون مصدراً ودستوراً للوعي الإيكولوجي، و إثراء للاجتهادات البشرية .

3. تعاليم وطقوس الفكر الحداثي الإنساني.

1. جذور الفكر الحداثي التاريخية:

توصف الحداثة عند أهلها بأنها المواكبة والتجديد الذي يمحو براديغمات قديمة بالية، وبتالي فهي صيرورة إيجابية يمكنها تلبية طموح الإنسان الباحث على التغيير الإيجابي الدائم، وبهذا فقد كانت تحمل شعاراً رناناً يخلب الألباب، مما جعلها تقتحم الميادين، وتقضي على المخالفين، وتؤثر في كل القطاعات، فقد نالت الحداثة موقع لم تناله أي حقبة فكرية من قبل.

فأسالت الكثير كم الحبر وأُلفت فيها المصنفات التي اتفقت في أغلبها على أنها تُؤسس على خصائص ثلاث رئيسية هي:الإيمان باستقلالية العالم الطبيعي، ثم الإيمان بالإنسان كمركز في حد ذاته، ثم العقل كمحرك أول (الويسي، 2016، صفحة 36).

مثل هذه المنطلقات لم تُعرف قبل الحداثة، فكان العالم الطبيعي في التشريعات الدينية وغيرها عالم تابع لعالم الغيب، تتحكم فيه قوى غيبية لها سلطانها الكافي لتغيير كل شيء فيه، كما كان الإنسان فيها لا يُحدد مرجعياته ولا يُؤسس لمنطلقاته بقدر ما يخضع ويتبع عوالم فوقية، أما العقل عنده فإما أنه يستعمله كوسيلة لفهم

المرجعيات التي تُملى عليه أو يلغيه تماماً فيكون بمثابة الجريمة الخالصة لأنه عنصر ناقص في مقابل الكمال.

ويرجع الجذر الإبستيمي للحداثة للثلاثي اليوناني الذي وُصف بالثلاثي الذهبي : سقراط Socrate (470-399 ق.م)، و أفلاطون Platon (427– 347 ق.م)، وأرسطو Aristote (385-323 ق.م) لهذا سنحاول عرض أراء كل منهم في الفضيلة والقيم و انعكاس كل منها على البيئة.

فقد بدأ سقراط Socrate بقاعدة هامة تتمثل في قوله:" الفضيلة هي المعرفة" (محمود، 1935، صفحة 164) والمقصود هنا أن الأخلاق مقدمة على الطبيعة، باعتبارها خاصة بالإنسان نفسه، أي العلم فضيلة والجهل رذيلة، والإنسان كلما تقدم في المعارف وكشف المجهول كلما كان فاضلاً.

هذه الأراء تُظهر تقوقع سقراط Socrate حول الجنس البشري أو حول مركزية الإنسان بالتعبير الحديث، لما أقصى الكائنات الأخرى من البعد الخلقي وركز على المعرفة والعلم، وهي ممكنات بشرية عاقلة فقط وليست ممكنات بيئية عامة.

من هنا كانت الانطلاقة للفكر الحداثي أو ما يُسمى بفلسفة الأنوار أو التنوير، التي وجدت في الفكر السقراطي بعض النصوص الملهمة، والأرضية التأسيسية الجيدة، فكان العقل الغربي يُؤمن هو الآخر بإمكانية كمال العلم البشري في مقابل المجهول الطبيعي، فصَور العالم على أنه قفار مظلم وكلما اكتشف ظاهرة منه حل أحد ألغازه وتقدم تجاه المعلوم فحق له الحلم بلحظة النهاية التي يكون فيها العالم مكشوف على مصرعيه والطبيعة خاضعة ومستسلمة لا تخفي عنه شيء وهذه هي لحظة نهاية التاريخ.

هذه الفكرة هي من غذت الفكر العملي والذي دفع البحث في مجال الطبيعة فسَرع في الثورات العلمية والمنعطفات الابستمولوجية حتى ازدهر المنهج التجريبي الذي حوَر في

العلاقة الرابطة بين الإنسان ومحيطة، وتسبب في طغيانه وتسلطه على ما حوله، ومنه حدثت الكوارث البيئية المعروفة في عصرنا والمتفاقمة بتفاقم التطورالعلمي التجريبي.

أما تلميذه أفلاطون Platon فقد تطرق لمسائل فلسفية كثيرة ومعقدة في مضامينها فكانت كتاباته متنوعة المواضيع متعددة الإشكاليات، أما البيئة فتطهر في بعض الشذرات التي يمكن أن تصنف كموقف إتيقي بيئي.

ونجد هذا في اعتقاده الشهيرالذي يُقر فيه أن هذا العالم المُعاش هو صورة لعالم المثل وأن كل شيء فيه يُحاول أن يُحاكي النموذج المثالي، لهذا يوجد تقسيم واضح بين عالم مثالي مطلق منزه من سلطان الزمان والمكان، وعالم طبيعي محدود بزمان ومكان وقابل للفناء لهذا فهو ذو قيمة نسبية (محمود، 1935، صفحة 165).

حتى العالم الطبيعي الذي نعيشه ينقسم بدوره إلى عالم جسماني وغير جسماني (تيس، 1984، صفحة 197) ' أما العالم الجسماني فهو عالم البدن والطبيعة الصماء، والغير جسماني هو عالم النفس الباطنية التي تتصف بطبيعة وجود نوعية مفارقة لعالم البدن.

من خلال هذا التقسيم يظهر مدى ازدراء الطبيعة لدى أفلاطون في ترتيبه وسط الأولويات الأنطولوجية فهي تحتل المراتب المتدنية، لأنها تنتسب إلى عالم الحس، وتتأخر فيه أيضا على عالم الروح فتكون بهذا متأخرة على مرحلتين، لأنه يوجد سبق قيمي وروحي لعالم الغيب المثالي على كل المرئيات، كما يُوجد سبق لعالم النفس الداخلي على البدن الظاهروهذا بسبب أنه آيل للزوال.

مثل هذه الدراسة تعتبر اعترافاً ضمنيا من أفلاطون بقيمة البيئة وعناصرها رغم أنها لا تحتل الريادة في أولوياته الفلسفية لكنها جديرة بالبحث والفهم والتحليل حتى يعرف الإنسان وسطه المُعاش ويتعايش معه كفرد متفوق وسلطان عليه، ويسعى من خلاله إلى إدراك عالم المثالي الذي لا يمكن لمخلوق غيره إدراكه، وهذا تجسيد آخر لموقف

أستاذه سقراط Socrate الذي أرخ لمركزية الجنس البشري، فكان داعماً لنزعته بتحجيج آخر.

بالطريقة ذاتها نجد تلميذ التلميذ أرسطو Aristote (385-323 ق. م) يُجسد الاستمرارية في الطرح السائد لهذه المرحلة، وهو الموقف القائل بأن الطبيعة هي عامل مستقل على الإنسان، ووجدت لغاية أساسية هي خدمته، فكانت خلاصة رأيهم أن العالم وجد لينسجم مع رؤية البشر له (أر�طو، 1998، صفحة 28)، وكأن هذا العالم الواسع هو فضاء مهيأ ليحتوى أحداث الحياة الإنسانية كموضوع رئيسي وغيرها موضوع ثانوي.

إنما تبعية أرسطو Aristote لسابقيه لم تكن تراكمية بالجملة بل حضرت القطيعة في بعض البراهين إذ اعتقد على خلاف أفلاطون أن العالم الطبيعي موجود وجودا حقيقيا، وواحدا في الوجود الخارجي (محمد، 1994، صفحة 59) أي لا علاقة له بعالم المثل المزعوم ولا يوجد فيه أي تدخل ميتافيزيقي فهو كما هو مستقل بذاته قائم على الوجود المحسوس، وله و اقعية هيولية وتكوين صنائعي منظم.

من هنا تظهر الفوارق بين الطرح المثالي الأفلاطونى الذي جعل من العلم الطبيعي محاكاة لعالم المثل والطرح الو اقعي الأرسطي الذي جعل الطبيعة كياناً مستقلاً، لكن يظهر التشابه في الاعتقاد بمحورية الإنسان فيها فكل منهما جزم بأن النفس والإنسان أسبق من الوجود الطبيعي من حيث القيمة.

هذا الموقف الطبيعي الداعم للمركزية البشرية لم ينف دعوته لاحترام الطبيعة ومقومات البيئة لأنه دعا إلى التعامل معها بحذر وبصفة مُتزنة تنبع من مقاصد العقل الكريم (عبد السلام و �بيلا، 2018/2017، صفحة 33) الذي يسعى لتسيير ما حوله بحكمة وروية تُظهر تفوقه على باقي الأجناس كما تُظهر أيضا نجاعة تفكيره وتخطيطه المستقبلي.

**هذه البذور الأولى للحداثة انطبعت على العلاقة بين البيئة والإنسان فخرجت من طابعها الإيماني إلى طابع ملئه التحدي، وأعلنت إتباعها لمرجعيات أخرى تؤمن بها كمحرك لفكر التنوير فأسست منطلقاتها بإيمانها باستقلال العالم الطبيعي كعالم قائم بحد ذاته، ثم انتقلت للإنسان وقدسته كجوهر ومركز للمعرفة، كما أنها زادت في دور العقل ومجدته** (عبد السلام و بيلا، 2018/2017، صفحة 11).

**من هنا كانت الحداثة ثورة راديكالية في المعارف والمناهج الإنسانية، سعت لتجاوز سلطان عالم الغيب والوحي وتلهم الإنسان بإتباع ذاته عوض انتظار رحمة السماء ،معتمداً على عقله، فكان العالم بالنسبة له طبيعة صماء تحتاج لمن يفهمه ويحل طلاسمه.**

**2.3 تجليات الحداثة وتأثيرها في علاقة الإنسان بالبيئة:**

للحداثة مراحل زمنية ومنعرجات حضارية بدورها، فهي مرحلة أوجدت بعد صراع ومخاض عسير نتج عن أحداث كثيرة.

وأول هذه المراحل عصر النهضة الذي يمتاز بفلسفته الجديدة التي تقوم على إحياء الفنون والآداب القديمة أي العودة لفكر الأجداد اليونان (بروتون، صفحة 9). هذا لأن فلاسفة هذه المرحلة حاولوا تبني فكرة إحياء التراث القديم واستثمار كل الأفكار الكلاسيكية في بلورة فكر يتقوقع حول اللاإنسان دون غيره.

مما أنتج ديناميكية كبرى في شتى مجالات الحياة فساهمت في تحصيل نقلة نوعية في حياة الإنسان الغربي الذي بات يملك القوة أكبر من ذي قبل، فبحث على التوسع ودخل في مرحلة تاريخية جديدة هي مرحلة الكشوف الجغرافية.

هذه الكشوف كانت تحمل طابع كوني عالمي، كما أنها توضح العلاقة الوطيدة بينها وبين العلوم والأفكار الأخرى، فساهم كل علم بقسط معين في اكتشاف أمريكا الشمالية، والجنوبية، والوسطى، وأستراليا، وعوالم جغرافية عديدة (علي إبراهيم، 2000، صفحة 321)، مثل هذه الإنجازات التي تغنت بها كتب التاريخ، يمكن أن تقرأ قراءة أخرى مفادها

وصول الفساد لعوالم مجهولة على الأقل عند الإنسان الغربي المزود بآليات الفساد البيئي أي أن الكشوف الجغرافية قربت البيئة العذراء من الأنانية المفترسة.

كما أنها سهلت التواصل بين الأمم المختلفة، هذا التواصل الذي لم يقم على الاحترام بقدر، ما قام على نشر الكولونيالية والتوسع الامبريالي الغربي فنشبت حروب أكثر دماراً مُورس فيها الانتهاك الكلي للبيئة بسبب تطور الأسلحة وتعقدها.

لكن الانفجار الحقيقي للموطن البيئي كان إبان الحربين العالميتين اللتان قامتا على أسس إيديولوجية جديدة منبثقة من منطلقات الفكر الحداثي، ومن منطلق الثورة الصناعية التي مثلت الدافع الاقتصادي وأكدت على الحاجة الماسة للمواد الأولية، مما عجل بصراع دامي خلف دمار البشرية وموطنها الذي مازالت آثاره إلى اليوم.

وبعد هذه الحروب الطاحنة توجهت البشرية إلى نوع آخر من الحروب، هي الحرب الباردة التي حافظت على طقوسها الهدامة ودمارها الشامل، لكن تخلت على المواجهة المباشرة بين القوى العظمى، مما صنع معسكرين يتبادلان النزاع تحت الغطاء الأيدلوجي المُزمن الذي تغذيه الأفكار الفلسفات الفردية والفلسفات العقلية الحداثية.

وفي عصر العولمة أو الأحادية القطبية أصبحت التعاليم الدينية والغيبية تُنسب للعصور الوسطى التي ارتبطت في ذهن المفكر المعاصر بالرجعية والتخلف، والحياد على التنوير العقلي، مما أنتج تجارب علمية جد متقدمة خالية من أي سلطة إيمانية في المجالات البيولوجية المختلفة حتى باتت البيئة تعيش أعظم أزماتها وتنبأ بنهاية الإنسان.

**4.خاتمة:**

بعد هذا العرض يمكن أن نتوصل بعد حوصلة المقارنة بين الحالة البيئية في الطرح الرباني ونظيرتها في الطرح البشري إذ يظهر في جملة من النتائج منها:

أن البيئة في الطرح الرباني الديني الإعتقادي هي موطن مُقدس تتعالى فيه القيمة ويصبح الإنسان فيه خاضع لتعاليم فوقية تضمن سلامة موطنه وتحمي المحيط الطبيعي من

جشعه وهذا ما ظهر في الطرح الميثولوجي الشرقي الذي كان يسعى لتقديس البيئة وإظهار كل الجوانب الايجابية فيها.

كما أن الديانات السماوية التي حملت قيم متعالية بدورها ذات قيمة نصية عالية كان فيها الله مشرعاً وحامياً للبيئة بفعل الأوامر والنواهي القطعية التي ظهرت في النصوص الربانية المقد□ة في كل دين، فكان الموطن البيئي هنا □ليماً معافى.

وعلى عكس ذلك كانت الحداثة ذات تأثير □لبي على العلاقة بين الإنسان والبيئة فكانت ذات تأثير □لبي لأنها ا □تفادت من تراث يوناني يجعل من الإنسان مركزاً وأ□اس كل تشريع متنا □ياً بهذا كل الطقوس الغيبية والدينية.

ثم إن مرحلة النهضة، ومرحلة الكشوفات الجغرافية، ومرحلة والثورة الصناعية هي مراحل متأزمة في علاقتها بالبيئة وهذا بسبب اعتمادها على الفكر الوضعي الذي يهتم بالتطلعات البشرية فقط، مما خلف حالة الدمار البيئي العظيم.

من هنا يمكن أن نطرح جملة من الاقتراحات منها أن البيئة لن تعود لسابق عدها ولن تنعم بالسلامة إلا إذا عادت إلى التشريع الفوقي الرباني وتنازلت على المركزية البشرية الهدامة.

وأن الدر□ات التي تُمجد الفكر الحداثي يجب أن تُعيد النظر في قيمة هذا الفكر الذي قُدس من غير تمحيص ولا روية حتى بات مقد□نا □يفاً علينا.